اسم المادة : علم الجمال
المرحلة: الدكتوراه أدب
مدرس المادة : أ.د. لقاء نزهة سليمان
إيميل التدريسي :Dl.alsham@tu.edu.iq
المحاضرة الثانية

الدوافع الجمالية

إن استنطاق الأثر الجمالي ومحاورته يتداخل مع طبيعة ثقافة الإنسان ودرجة حاجته إلى الجمال ، فكلما كان الإنسان أكثر ثقافة ووعياً اتسعت مساحة حاجاته الجمالية . وينعكس هذا أيضاً على تنوع الحاجات الجمالية ، بمعنى أنه لا يحقق كفاية جمالية في زيارة متحف فقط أو حضور مسرحية أو حضور عرض سينمائي ، كما أنه لا يكتفي أيضاً بقراءة ديوان شعر أو رواية ولا يكتفي أيضاً بإحداث نوع من العلاقة الجمالية بينه وبين الطبيعة ، أن تكون له صلة جمالية بالطبيعة تتم هذه العلاقة من خلال الجماليات التي تبعثها الطبيعة عبر تنوع الفصول وما يترتب عليه ذلك من إفرازات جمالية .

كما أنه لايكتف أيضاً بالسفر مثلاً بوصفه عملية تملأ جزء من الحاجة الجمالية للفرد بل يحيط بكل هذه العناصر وكلها متداخلة يمكن أن أن تحقق له قدراً عالياً من الكفاية الجمالية أو الاكتفاء الجمالي ، وهذا الاكتفاء لايمكن بأي حالة من الأحوال أن يكون كاملاً لأن النقص الحاصل في الكفاية الجمالية هو الذي يقود دائماً إلى الاستمرار في استفسار الأثر الجمالي ومساءلته واستنطاقه .

وكلما اتسعت قاعدة الحاجات أصبح إشباعها أكثر ضرورة في عملية بحثنا عن حدود للحاجة الجمالية . لابد لنا أن نتعرف إلى الدوافع الجمالية ، يعني ما هي الدوافع التي تشعرنا بأننا بحاجة إلى الجمال ، بمعنى نحن نعرف الآن لماذا نأكل ولماذا نشرب ولماذا نلبس ، الدوافع التي تقودنا إلى ملئ الحاجات الانتفاعية معروفة لدينا ، وفي المقابل يجب أن نبحث في الدوافع للحاجة الجمالية . ربما يكاد يتفق معظم من اشتغل على هذا الموضوع في وجود مجموعة من الدوافع المشتركة تقود الإنسان إلى البحث عن مصادر الجمال لإشباع هذه الحاجة :

أول هذه الدوافع هو حاجتنا إلى أن نجعل الحياة على قدر من الجمال والنبل ، لأن الحياة من دون جمال ومن دون ما يعكسه هذا الجمال من قيم وتقاليد ورؤى وأفكار لا يمكن أن تكون جيدة أو مقبولة ، وربما من خلال الجمال يتحقق تمايز الإنسان عن بقية المخلوقات .

الدافع الثاني من الدوافع الجمالية هو أن الموضوع الجمالي في بعض الأحيان يشكل ملجأ أو ملاذاً فالإنسان في حالة نفسية معينة أو في ظرف نفسي معين يجد نفسه وقد ارتاد مكتبة وانتقى ديواناً من الشعر للسياب مثلاً أو المتنبي أو عنترة أو أدونيس أو اتجه إلى آلة تسجيله ليسمع موسيقى معينة أو يشعر بضرورة كبيرة إلى أن يذهب إلى السينما ومن دون سابق إنذار أو فكرة أحياناً . هذا الأمر يتعلق بالظرف النفسي الذي يعيشه الإنسان أحياناً ، فربما شعر في لحظة بحالة اكتئاب أو مرارة أو هزيمة أو خسارة ولايجد سبيلاً لتحقيق معادل نفسي أو روحي إلا بالذهاب إلى عالم الفن بوصفه أهم مصادر إنتاج الجمال

أو ربما يذهب إلى شاطئ نهر أو يقف بالقرب من مجموعة من الأشجار بهذه الطريقة يتحول الفن والطبيعة وكل المصادر الأخرى التي تنتج الجمال إلى ملاذ يسعى الإنسان من خلاله إلى التخلص من حزنه وكآبته .

الدافع الثالث من الدوافع الجمالية هو أن الجمال سبيل إلى إنشاء علاقات راقية مع الآخرين ، إذ أنني عندما أحضر عرضاً مسرحياً أو أدخل مكتبة أو أزور متحفاً فإنني عادة عادة لا ألتقي إلا بمجموعة من الناس يرتقون إلى مستوى حاجاتي الجمالية ، وبهذا سيكون إشباع الحاجة سبب إلى إيجاد علاقات راقية مع الآخرين .

من الدوافع الأخرى أيضاً تحقيق ما يدعوه علم النفس فكرة التطهير النفسي ، أي أن الذهاب إلى منطقة الجمال باستمرار يساعد الإنسان في أن يضاعف حجم الخير والنبل والرقي ويقلل في الوقت ذاته من حجم الشر الذي يسكنه ويخلصه من الكثير من سلبياته على النحو الذي يحقق له التطهير النفسي ، إذ يطهره من الشرور ويجعله أقرب إلى الخير دائماً .

الدافع الآخر الذي يدفعنا إلى تلقي الجمال هو رغبة البعض في تلقي النصح والإرشاد بمعنى أنه من خلال الاطلاع على تجارب الآخرين والدخول في عوالمهم وتلمس النتائج التي يخرجون بها من هذه التجارب الموجودة في الاعمال الفنية يتعلم المتلقي دروساً في الحياة قد تصحح بعض مسارات حياته ، وقد يكتسب من هذه التجارب نصحاً أو إرشاداً يجعله أكثر قابلية على تجاوز مشكلاته ومآسيه فضلاً عن ذلك فإن الموضوع الجمالي يجعلنا أكثر قدرة وأكثر حرية للتعامل مع ذواتنا ودواخلنا في كل مرحلة من مراحل الحياة لأن الحاجات الجمالية تنمو وتتطور مع الزمن ، فالحاجات الجمالية للطفل تتناسب مع الأفق الجمالي للطفل ، ولكن الحاجات الجمالية للمراهق تختلف باختلاف الوضع النفسي والإنساني له ، كما أن الحاجات الجمالية للرجل البالغ هي أيضاً تختلف باختلاف الطبيعة الإنسانية والنفسية له .

المكان أيضاً يؤثر في تطور هذه الحاجات ونموها ، فأنا مثلاً أعيش في مدينة شرقية من دول العالم الثالث تكون حاجاتي الجمالية عادة بما يتناسب والوضع الاجتماعي الذي أعيش فيه وبما يستجيب لطبيعة المكان ، لكنني حين أتحول للعيش في مدينة باريس مثلاً فإن حاجاتي الجمالية سوف تتعدد وتتنوع استناداً إلى توفر هذه الحاجات في المكان الجديد . فأنا في المكان القديم أحتاج إلى مشاهدة مسرحيتين في الشهر مثلاً ، وأحتاج إلى زيارة المتحف مرة واحدة في الأسبوع لأشعر بالجمال ولكن المكان لايسمح بتلبية هذه الحاجات ، ويبقى عامل الزمن أساسي وجوهري لأنه كما يقال الأذواق تتبدل مع تقدم السن .

الدافع الآخر من الدوافع الجمالية هو البحث عن مشاعر تفتح أبواب الكنوز العاطفية لدى الإنسان ، كل إنسان يمتلك مجموعة من الكنوز العاطفية ولكن هذه الكنوز غالباً ما تكون غامضة وغير مكتشفة ، يقوم الجمال بأشكاله المتعددة بإعطاء الإنسان المفاتيح التي يمكن بها أن يفتح هذه الكنوز العاطفية بأمل الارتفاع بمستوى عاطفته إلى مرحلة أرحب وأوسع .

هناك آلية معينة ومهمة نستدل بها على الموضوعات الجمالية ونحقق بوساطتها الاكتفاء الجمالي ، أو نوع من الاكتفاء الجمالي هي التأمل .

والتأمل بدوره يحتاج إلى مران وتربية ووعي على النحو الذي يصبح فيه التأمل عادة عند الإنسان لأنه بوساطة التأمل تتاح فكرة للإنسان لأن يصل إلى مكنونات الجمال في الموضوع الجمالي ، إذ لا يمكن للحاجات الجمالية أن تشبع إن لم نكن قد تدربنا أو تمرنا على التأمل .